العدد 2490 - السنة التاسعة
الأحد 7 رمضان 1437 - الموافق 12 يونيو 2016
Sunday 12 June 2016 - No.2490 - 9th Year
إعداد : محمود عبدالراضي

جوهرة سياحية تتلألأ على شطآن الشمال

البترون.... العابقة بأريج التاريخ

مدينة البترون جوهرة السياحية اللبنانية

نفق سان لويس في دير راهبات القلبين الأقدسين

تمر في شوارع هذه المدينة وكأنك تختال عبر أزمنة التاريخ، فيعود بك الحنين إلى العصور الغابرة بهياكلها وقلاعها وأسواقها القديمة. إنها مدينة البترون العابقة بأريج العراقة والتاريخ، الغافية على ضفاف الشاطئ الفينيقي وبين أحضان الهياكل.

زائر البترون يشعر وكأنه يعبر عتبة التاريخ المحفور على جدرانه الهامسة بخفايا الماضي، فإذا به أثيرا لسحر خاص يجمع بين الطابع التراثي وحضارة المدن الحديثة.

إنها مدينة ساحلية على شاطئ لبنان الشمالي، تبعد عن بيروت 54 كلم، تحيطها بلدة عبرين من الشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب، كبا وسلعاتا وجبل حمامات من الشمال وبلدة كفر عبيدا من الجنوب. ترويها مياه نبع كفر حلدا ونهر الجوز إضافة إلى ينابيع دلي والغواويط والفتاح. يقول أحد أبنائها الباحث التاريخي والأثري جوزيف مرشاق، أن إسم « البترون » ورد للمرة الأولى في رسائل تل العمارنة في النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. ، إلا أن ذلك لا يعني أن تاريخ البترون يعود فقط إلى تلك الحقبة، فإن العديد من القطع الأثرية التي عثر عليها في البلدة تعود إلى آلاف السنين ق.م. كما اكتشف الباحث جوزيف اليان عند مصب نهر الجوز سلسة من المغاور على بعد كيلو متر واحد من البحر، وجدت فيها أدوات ومجموعة من حجارة الظران، مما يدل على أنها كانت مسكنا للإنسان الأول.

وعن أنيس فريحة أن كلمة « البترون » مشتقة من اللفظة السامية « بثر» ومعناها الصخر والشاهق العالي نسبة إلى وفرة الصخور فيها. وهناك تفسير آخر أورده جوزيف اليان ومفادة أن « البترون» مشتقة من كلمة « بوتريس» التي أطلقها اليونانيون على البلدة وكانوا يتبعونها دائما بكلمة الجميلة «Beautris la belle». ومعناها عنقود العنب نسبة إلى أشجار الكرمة التي كانت تغطي مساحات واسعة.

السور الفينيقي الضخم

السوق التجاري القديم

إلاّ أن الأبوين حبيقة وارملة، يعتقدان أنها مركبة من «بيت» و «تروما» وهي تعني محلة المقدم وبيت الرئيس، وقد ربط جوزيف مرشاق ما بين هذا المعنى ووجود صخرة فينيقية مجوفة تعرف بـ «مقعد المير» بالقرب من السور الفينيقي، يقال أنها كانت مقعدا للحاكم أيام الفينيقيين.

تاريخ وحضارة

بيت قرميدي لا يقل عمره عن 200 سنة ويعود بناؤه إلى عهد الأمير بشير الشهابي

تاريخ البترون أحداث ترويها آثارها المتناثرة وأحجارها الناطقة بأسرار الشعوب التي توالت عليها عبر حقبات التاريخ. وقد تفاوتت هذه الحقبات بين انحطاط وازدهار، وكان أبرزها الحقبة الفينيقية، الرومانية والصليبية، إضافة إلى عهد المتصرفية.

تعتبر البترون من أقدم المدن الفينيقية، ونقلا عن المؤرخ يوسيفوس فلافيوس أن البترون بنيت على يد الكاهن ايتوبعل الثاني ملك صور في القرن التاسع ق.م. إلا أن العديد من الأدوات الأثرية تدل على تواجد الإنسان في البترون منذ العصور الحجرية، مما يدعو إلى الإعتقاد أن أيتوبعل لم يبني ليس منطقة البترون بل قلعة البترون التي تدمرت في زلزال 9 تموز 551 م. فأعاد الأهالي بناءها بطريقة عشوائية، والدولة تسعى حاليا إلى وضع اليد عليها لتحويلها متحفا لآثارات المدينة.

وقد حققت البترون إزدهاراً واسعا خلال الحقبة الفينيقية، فقد ساهمت الغزوات المتكررة على صور وصيدا آنذاك، في نزوح الفينيقيين إلى البترون مما ساعد في إعمارها إقتصاديا.

كما عرفت تطورا لافتا خلال الحقبة الرومانية، ويبقى المدرج الروماني في حي مراح الشيخ، الشاهد الأمثل على هذا التطور. فقد أتى نتيجة لحق المواطنية الرومانية التي منحها القائد الروماني يوليوس قيصر إلى سكانها، مما يعني أنها اصبحت مدينة رومانية، وذلك تقديرا لجهودهم في مساعدته في التغلب على خصومه. وفي سنة 30 ق.م. منحوا حق صك العملة حتى سنة 250 م. وهناك اليوم مجموعتان من هذه العملة؛ مجموعة في متحف اللوفر في فرنسا وأخرى في لبنان.

وخلال الحكم الصليبي، كانت البترون إقطاعة تابعة لطرابلس، تحكمها عائلة D.agout الفرنسية الآتية من جنوبي فرنسا، ولم يبق منها سوى قناة تدعى « لوسي» Lucie تزوجت من تاجر إيطالي من مدينة «بيز» يدعى بليبانوس Plebanos. مما شكل دافعاً لتطوير العلاقات التجارية بين البلدين. وكانت القلعة الفينيقية مقرا للإدارة الصليبية التي اطلقت على البترون إسم « Seignerie de la sainte montagne»، نسبة إلى توفر الكنائس والأديرة فيها والتي تعود إلى أوائل المسيحية.

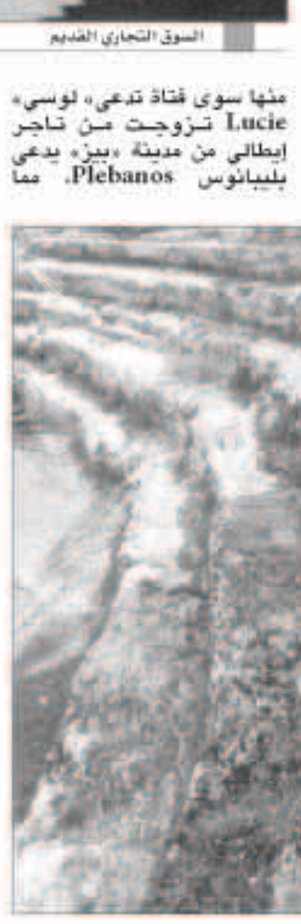
المدرج الروماني القديم

وفي عهد المتصرفية الذي امتد بين عامي 1860 و 1918م، عرفت المدينة أوج إزدهارها، إذ تم خلالها بناء أكبر قسم من الأبنية بواسطة الحجر الرملي الذي كانوا يقتطعونه من السور الفينيقي. وهي كناية عن مدارس وأديرة وكنائس وفنادق وما لا يقل عن 25 خان لم يبق منها سوى القليل، إضافة إلى عدد من المعاصر والمطاحن وغيرها. كما ساهم مرفأها التجاري المعروف بتطوير العلاقات التجارية مع دول العالم.

آثار وذاكرة

وفي جولة على المعالم الأثرية في البلدة، لا تستطيع إلا أن تقف مشدوها أمام ضخامة السور الفينيقي على الشاطئ، وهو عبارة عن كثبان رملية تحجرت في الطور الجيولوجي الرابع. وفي القدم كان يمتد على طول شاطئ البترون من الشمال حتى الجنوب لرد الغزوات والأمواج العاتية، إلا أن الأهالي اخذوا يقتطعون منه لتشييد أبنيتهم فأخذ يتقلص مع الأزمنة، حتى أضحى طوله اليوم لا يتعدى الـ 225 مترا وعلوه 5 أمتار وعرضه لا يزيد عن 1.5 متر عند القمة.

ومن أشهر الآثار الصليبية في لبنان، تطالعنا قلعة المسيلحة على صخر ضخم وعال مستقيم الجوانب، تتألف من طابقين ذات جدران سميكة تنفذ منها إلى الخارج كوى متعددة كانت تستعمل للمراقبة ورمي النبال.

وهي تعد من أشهر القلاع اللبنانية والكل يتذكر صورتها على الأوراق النقدية من فئة الـ 25 ليرة. ويعتقد أرنست رينان أنها ترقى إلى العصور المتوسطة وقد أشيدت على أنقاض قلعة فينيقية.

وأمام المدرج الروماني في حي مراح الشيخ، تتملكك الرهبة وتعود بالخيال إلى سطوة الرومان في تلك الأزمنة الغابرة. ويقول الباحث جوزيف مرشاق انه المدرج الروماني الوحيد في لبنان والعالم. المحفور في الصخر والذي لا يزال على طبيعته (من دون أية إضافات معمارية). وبالقرب منه، نقع على حجر ينبض بالفن الراقي، حفر عليه زرجونة عنب، وجد في محيط كنيسة مار يعقوب على الضفة اليمنى لنهر الجوز، التي شيدت على أنقاض كنيسة صليبية لم يبق منها سوى جدار واحد، وهي بدورها بنيت على أنقاض معبد وثني أبطوري. وزرجونة العنب هذه، تدل على غنى البترون ببساتين الكرمة، ومن الممكن أن تدل على عبادة كل ما يتعلق بالخمرة أيام الأبطوريون واليونان والرومان.

تمتاز البترون بوفرة كنائسها وأديرتها، ولعل أبرزها كاتدرائية مار أسطفان التي تعود إلى القرن العشرين، بناها المهندس الإيطالي جوزيفي مادجوري Juiseppe Maggiore الذي أشاد أيضا كاتدرائية مار جرجس للموارنة في بيروت، وهي مبنية على أنقاض كنيسة قديمة تعود إلى العام 1760م وهي بدورها مبنية على أنقاض كنيسة أخرى تعود إلى العام 1490م.

أما كنيسة مار جرجس، فقد أتم المعلم دبيو (من البترون)، بناءها في آب 1867 على الطراز البيزنطي، وسكان البلدة يسمونها «أيا صوفيا» البترون لمدى تماثلها بكنيسة أيا صوفيا اسطنبول، وهي مؤلفة من عقدين، عقد فيه مستديرة لا يقل علوها عن 14م، تعتبر الأجمل في لبنان، وعقد متصالب فوق المذبح.

وإذا مررت بدير راهبات القلبين الأقدسين، تقع على نفق قديم كان يستعمل فيما مضى كمخزن للمواد المستوردة من أوروبا.

ونصل إلى السوق القديم، الذي يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، فتتجلى أمامك عراقة التاريخ بأبهى صورها، وتستقبلك أبواب خشبية ناطقة بأقاصيص الماضي السحيق.

ولا تنسى الحارات القرميدية التي تعود أيضا إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي مؤلفة مما لا يقل عن 15 بيتا لم يتبق منها سوى خمسة، ذات رسوم جدرانية رائعة.

كنيسة مار جرجس بطابعها البيزنطي وقبتها المميزة (1867)

بيت قرميدي لا يقل عمره عن 200 سنة ويعود بناؤه إلى عهد الأمير بشير الشهابي